

البعد الشرعي للإبداع لابن الموقت

من خلال رحلته المراكشبة

بقلم الأستاذ : محمد الطوكي

أستاذ بكلية الآداب مراكش

خريج جامعة ابن يوسف بمراكش

إن العقد الثالث من القرن العشرين الذي أنجز من خلاله هذا العمل، الرحلة المراكشبة¹ لمحمد بن محمد بن عبد الله الموقت (1894-1949)، قد مثل في تاريخ الأدب المغربي الحديث زمان الشعر بامتياز، إنشاء وإبداعا وتقدا، أما النثر الفني الذي ارتجت أرضيته بمناوشة فنون مستحدثة شكلا ومضمونا، فقد ظل يستأثر بالدرجة الثانية من اهتمام المبدعين والنقاد² والمتلقين. في هذا المناخ كانت المبادرات السردية الأولى تشق

¹ - محمد بن محمد بن عبد الله الموقت : الرحلة المراكشبة، أو مرآة المساوي الوقتية ، ويسمى أيضا السيف المسلول على المعرض عن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، صبعة مصطفى البابي الحلبي سنة 1351هـ/1933م.

² - لا يزال في الشرق في هذه الفترة -1934- تيار محافظ يرفض الجنس السردى ويعتبره مسلاة للأطفال، ولغوا من القول ينبغي أن ينأى عنه الكبار. ويكفي الشرقي دهر الدهارير قضاه في اللهو والغثيان ، وهو اليوم بحاجة إلى ما يستنهضه ويدفعه لارتداد آفاق التقدم، ومن متزعمي هذا التيار الرافعي، يقول : لن أنقل إلى كتابتي دواب الأرض، أو دواب الناس أو دواب الحوادث، فإن الكتب ليست شيئا غير طبائع كتابها، تعمل فيمن يقرأها عمل الطباع الحية فيمن يخالطها ، والرواية إذا وضعها كاتب فاجر، فهي عندي ليست رواية بل هي عمل يجب ان يسمى في قانون العقوبات (فجورا بالكتابة).

مصطفى صادق الرافعي : فلسفة القصة ولماذا لا أكتب فيها....؟

الرسالة العدد 48-4 يونيو 1934 .

طريقها وثيدا وسط مناخ سياسي وسوسيو ثقافي، لا يمكن استبعاد دوره في تبرعم تلك
الفسائل السردية المغربية الرائدة .

وتدخل الرحلة المراكشية ضمن تلك المحاولات، فقد نشرت بالقاهرة سنة 1933 في
ثلاثة أجزاء ضمها مجلد واحد، في أوراق من القطع المتوسط، بلغ عدد صفحاتها 530،
وقد أعقبها رحلات سردية أخرى لنفس المؤلف وهي :

- أصحاب السفينة (القاهرة 1935) .

- الرحلة الأخروية في جزاين (فاس 1946) .

- الرحلة الترجمانية³ .

والرحلة موضوع مداخلتنا، تمثل بحق مرحلة حاسمة من حياة ابن الموقت، فقد أعاد
النظر في أفكار ورؤى سابقة، وجدد لنفسه أصولا فكرية إسلامية أخرى التزم بها قناعة
وسلوكا، وأصبح يرى العالم من خلالها، يدعو إليها، ويناضل من أجلها . كما أن الرحلة
تعتبر صورة مستأمنة واعية لجانب من الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي للعصر .
وتندرج من حيث موضوعها ضمن الأعمال الإصلاحية التي وضعت الأصبغ في الجرح،
وأثارت بعض المشاكل الحارقة، وكان من الطبيعي أن تختلف طرق وأساليب تقبلها، التي
ركزت على مناقشة مضمونها وأفكارها، من غير إغارة أي اهتمام لكيفية التعبير عن ذلك
المحتوى، لقد أفلح ذلك الشكل السردى في تبليغ المضمون على جمهور عريض . ولقد أتت

³ - قال الموقت عنها : " وقد ذكرنا جميع مقالاته التي بلغتنا في رحلتنا المسماة "الترجمانية" بـ"بابسط من هذا "الرحلة
المراكشية 156/1.

أعنف الردود من المتصوفة والمتفكرة الذين اعتادوا الحكيم والقص واعتبروه "جندا من جنود الله يثبت الله بها قلوب العارفين من عباده"⁴. فسلوا عليه وعلى عمله الصواعق والسيوف، وأثاروا عليه أتباعهم ومريديهم من الخاصة والعامة، وترسبات تلك الأيام لا تزال حاضرة إلى اليوم، فمجرد ذكر الرجل يثير لدى بعض الأوساط حساسيات، وأقل ما قيل في حقه: إنه شخصية قلقة مضطربة، وربما وسم بالجنون.

وعلى كل فإن ابن الموقت لم يكن بدعا في هذا التوجه، اعني استبدال وعي بوعي جديد، فقد سبق إلى ذلك بأعلام، وجايلته شخصيات، وأعقبها أخرى، وتلك سنة الله في كونه، مما يجعلنا نغل ذلك بما اسماء L. Goldmann بالشعور أو الإحساس الجمعي، "ومن مميزاته أن يكون مصحوبا بالشعور العائلي والمهني والوطني والطبقي... الخ، وهذا الأخير هو الشعور العام الملاحظ في ميول وآمال وتفكير أعضاء طبقة اجتماعية معينة، ميل ينمو بالضبط انطلاقا من وضعية اقتصادية واجتماعية تؤديان إلى توليد ديناميكية ونشاط يصبح معها الإنسان هو نفسه المجتمع"⁵، والوعي بهذا الشعور يختلف من شخص

⁴ - أحمد بن المامون البلغيتي: شرح الابتهاج بنور السراج، مطبعة أفندي مصطفى، القاهرة 1319هـ - 177/2. والفقرة الكاملة: قال المواق في سنن المهتدين، حدثنا شيخنا المنثوري بسنده إلى أبي العباس ابن العريف، قال: كنت في مجلس استاذي أبي علي الصدي أقرأ عليه الحديث، فقرأ يوما الحديث، ثم أغلق الكتاب وجعل يحكي حكاية الصالحين، فوقع في نفسي، كيف يميز الشيخ أن يقطع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحكي الحكايات؟ قال: فما أتم هذا الخاطر حتى نظر إلي الشيخ شزرا، وقال لي: يا أحمد، الحكايات جند من جنود الله، يثبت الله قلوب العارفين من عباده. فما بقي في جسدي شعرة إلا قطر منها العرق، فلما رأيته دهشت قال لي: يا أحمد أين مصداق ذلك من كتاب الله؟ قلت الشيخ أعلم، وقال: وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك...

⁵ - هذا المفهوم الاجتماعي الجدلي يختلف عن المفاهيم التقليدية لعلم النفس وعلم الاجتماع.

لآخر، ولا يبلغ ذروته إلا لدى بعض الأفراد الاستثنائيين، أو عند جل أعضاء الطبقة خاصة في لحظات حاسمة، ك لحظة حرب وطنية أو ثورة طبقية... الخ⁶.

والزمان المغربي الذي عاشه ابن الموقت ابتداء من العقد الأول من القرن العشرين وما تلاه، اهتمت فيه مجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية، أدت من جملة ما أدت إليه، إلى بلورة الشعور الوطني المرتبط بأصول سلفية. "لقد ارتبطت السلفية في بلد المغرب ارتباطا وثيقا بالحياة العملية السياسية، ولعبت دورا أساسيا في مناهضة الاستعمار... وقد استطاعت السلفية المغربية نتيجة لارتباطها بهذا البعد الوطني، استطاعت في الثلاثينيات أن تلعب دورا إيجابيا، تمثل في تحريك مجموع فئات المجتمع المغربي وزرع بذور الوعي الجديد"⁷.

وإذا عدنا إلى الرحلة التي تعكس ما أسميناه بالوعي الجديد، فإننا نجد ابن الموقت يصنفها من حيث شكلها ضمن الجنس السردى، يقول "يا ليت شعري ما الذي أصابها - أمتا- حتى غضت النظر عن القصة لتي قصها وأهملت أمرها، وظن أهلها أنها أمور تاريخية لا تنفيد إلا المؤرخين.

القصة في كل أمة عليها مدار ارتقائها، سواء كانت وضعية أم حقيقية؛ على السنة الحيوان أو الإنسان أو الجماد، على هذا تبحث الأمم قديمها وحديثها، وناهيك بكتاب كليله ودمنة، وما والاها من القصص الناسجة على منواله في الإسلام؛ ككتاب فاكهة الخلفاء ومقامات الحريري، وإن حاد بعضها عن سواء الطريق والجادة وطنى؛ فخلط الجد بالهزل؛

⁶ - L.Goldman : le Dieu caché. E.d. Gallimar 1959/ p 27.

⁷ - الحمداني حميد: الرواية المغربية دار الثقافة - المغرب الطبعة الاولى 1985، ص 98

ككتاب ألف ليلة وليلة، الذي استخلص زبدته الغربيون. كل يعلم ما صنعت الروايات في عقول الغربيين من التأثير، وأخذهم منها بالأحسن من الكلام والأجمل من الأفعال، وكيف يسمعون ويعقلون في القرآن قصص تسرد؛ ووقائع الأنبياء، وفضائل الأولياء، وعجائب أعمالهم وغرائب أحوالهم؛ ليقيس المشاهد المنظور على الغائب المستور، والحاضر الظاهر على الغائب الفائق؛ غفل الناس عن ذلك كله، وناموا على وساد الراحة ومهاد الغفلة حتى أصبح المسلمون في أنحاء المعمورة يمتازون بأنهم مسبقون في المدينة والعمران، جاهلون بالمنافع المادية والمعنوية، خاضعون للظالمين مقلدون، والمقلد جاهل، والجاهل غافل والغافلون هم الهالكون⁸.

فهذا النص مهم، نظرا لأن هذا الفقيه الأديب يتحدث فيه عن مفهومه للسرد، إنه نص غني، فبالإضافة إلى دواعي استشهاده بنا به، فإنه يثير قضايا تتعلق بالفن السردى والنقد، إضافة إلى التلميح إلى المرجعية المعرفية لمضمون الرحلة. فهو يحيلنا:

1- على بعض المرجعيات السردية التي عكف ابن الموقت على قراءتها وتمثلها قبل مغامرته في كتابته السردية، ولاشك أنها استفادت منها وتنامت معها، وقد تنوعت تلك المقروءات، واستفادت من المقدس؛ القرآن الكريم، والإنتاجات العربية القصصية العالمية، كليلة ودمنة، وفاكهة الخلفاء والمقامات، ومن الثقافة الشعبية ونموذجها ألف ليلة وليلة، ويرى في مضمون هذه الأخيرة مجانفة للجادة؛ حيث اختلط فيها الجد بالهزل، وهو في هذا الحكم على السرد الشعبي، وخاصة ألف ليلة وليلة، يتفق من جهة مع ما جاء في مجلة المقتطف المصرية التي "أعلنت صراحة استغرابها للاهتمام الذي أولاه بعض الكتاب لحكايات ألف

⁸ - محمد بن محمد الموقت : الراحة المراكشية ص 162/3.

وليلة، داعية هؤلاء إلى الاهتمام بالعلوم والأفكار الحديثة، التي لها فعلها في المجتمعات الأوروبية⁹

وبغض النظر عن مضمون بعض حكايات ألف ليلة، فإن ابن الموقت، من جهة ثانية، لا ينكر ضمناً تقنيات السرد فيها، وقد استفاد منها في رحلته، وموقفه النقدي أكثر وعياً مما جاء في المقتطف، حيث حاكم المضامين واستفاد من إطار الحكيم وأساليبه، وشحنه بمضامين إصلاحية، فالحكي بالنسبة إليه وسيلة للتسرية عن النفس، وسبيل إلى المعرفة ولا غرابة في ذلك، فقد تربى كاتب الرحلة في أسرة كانت تحتفي بالأدب الشعبي، وكان جده رمزا من رموز فن الملحون، وزازيته أشهر من نار على علم.

2- الإشارة الجمالية للنص السردى، وتمثل عنده في الصياغة، حسن الكلام والغرابة والعجائبية والتخييل.

3- نقد السرد، انطلاقاً من مقولات نقدية خاصة بفن الشعر، وخاصة مقولة التطهير، وتعني في هذا السياق، التخلص من وصمة التخلف وارتداد فضاءات التقدم التي أخطاها المسلمون، بينما قطع فيها الغربيون أشواطاً بعيدة، ويؤكد نفس الرأي في معرض حديثه عن الدور الإصلاحي الذي على الأديب أن يلتزم به يقول: " وإذا رأوا- أي الأدباء- في أمتهم عادات يابأها سليم الذوق، أو وجدوا منها أخلاقاً وأعمالاً لا تتفق مع شريعة الفضل ولا مع قوانين الشرع، عمدوا إلى تغيير العادات وتطهير الأعراف، وأخذوا في ذلك سبلاً متنوعة في إنشاءاتهم؛ تارة بالقصص والحكايات التي تمثل شناعة الرذيلة وبهاء

⁹ - د. محسن جاسم الموسوي : الرواية العربية، النشأة والتحول " ط 1 الهيئة المصرية العامة للكتاب 1988، ص 49

الفضيلة، وما آل إليه أمر المتدسين بالأولى، وما ارتقى إليه حال بالثانية... كصنيعها في هذه الرحلة المراكشية" ¹⁰.

وكل عمل فني لا ينهض عنده بهذه الوظيفة الإصلاحية، فإنه لا يستحق اسم الأدب يقول: "ومنهم من تظاهر بمجموع قصص تتلى للفكاهة، أو أساطير تنقل في المسامرات... فإن هذا لا يتصل بمعنى من معاني الأدب" ¹¹.

ولقد رفضت من ذي قبل أعمال روائية شرقية انطلاقاً من هذا البعد النقدي الأخلاقي، وكب آنذاك حبيب بنوت في مجلة المقتطف -1891- مقالاً ذكر فيه أن هذا الجنس الأدبي الطريف لن يتقبل إلا "يوم يتقدم الفن وتنمو رغبة الكتاب في إتقانه، فلا يقتصرون على ذكر الغرام والهيام واللقاء والفراق، وسائر ما يتعلق بأحوال العشاق، بل ينظرون إلى ما به تهذيب الطبع، وإصلاح العادات، وترقية الأخلاق" ¹².

وبما أن الهم الذي حملته الرحلة هو اقتراح سبيل للإصلاح، والخروج من الجمود والتخلف والانحطاط، فإن أسلوب الحكيم الذي قدم به هذا الفقيه الأديب رؤياه الإصلاحية، ساعده على توسيع دائرة الجمهور التي سيتلقى عمله. "فالأدباء في الحقيقة هم ساسة لأخلاق الأمم... فإنهم بما يعملون من طرف التفهيم، يمكنهم أن يقربوا إلى العقول ما يبعد عن إدراكها، ويسهلوا على الأذهان ما يعسر عليها النظر فيه، ويعبروا عن المعنى الواحد بالطرق المختلفة؛ فتستفيد منه العامة ولا تنكره الخاصة... وأخذوا في ذلك سبلاً

¹⁰ - محمد بن محمد الموقت : الرحلة 134/2

¹¹ - محمد بن محمد الموقت : الرحلة 133/2

¹² - د. بحسن جاسم الموسوي : المرجع نفسه نقلاً عن المقتطف المجلد الخامس عشر 1891، ص 49.

متنوعة في إنشاءاتهم؛ تارة بالقصص والحكايات التي تمثل شناعة الرذيلة وبهاء الفضيلة، وما آل إليه أمر المتدسّنين بالأولى، وما ارتقى إليه حال المتحلّين بالثانية ... كصنيعنا في هذه الرحلة المراكشية"¹³.

وقد استفاد في هذه الرؤية الجامعة بين الإصلاح والقلب السردى، من أعمال أشرنا إليها، وأخرى شرقية تقدمت رحلته، إذ دعت ملابسات النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلى ظهور "المقامة تلبية لدعوتى التسلية المشفوعة بالوعظ والإصلاح الاجتماعى". ولهذا كانت "مجمع البحرين" لناصف اليازجى، (الساق على الساق...) لأحمد فارس الشدياق فى الشام فى النصف الثانى من القرن الماضى، تقترن ب (حديث عيسى بن هشام) للمويلحى، (لإبلى سطيح) لحافظ إبراهيم فى مصر، ومقامات أبى الثناء الألوسى فى العراق. وجميعها تلبى حاجة اجتماعية سياسية وترفيهية فى آن واحد"¹⁴. وقد تذرّع ابن الموقت إلى إقناع قارئه والتأثير فيه بطريقتين، الأولى فنية، والثانية اصطلاح فيها العقل والشرع، مثل قياس الشاهد على الغائب، إذ لا يصلح حاضر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار قصيدة ابن الموقت فى سردياته الجامعة بين البعدين الفنى والشرعى، وضمفناهما إلى جانب المناسب من تقنيات السرد المعاصرة، فإن ذلك سيعمق قراءتنا وتأويلنا.

يمكن تلخيص هذه الرحلة انطلاقاً من مفهوم المقطوعة السردية، التى هى عبارة عن وحدة خطابية تجرى مجرى القصة القصيرة، ومفهوم الفضاء السردى وهو هنا خارج المدينة

¹³ محمد بن محمد الموقت: الرحلة 134/2

¹⁴ د. محسن جاسم الموسوي: المرجع السابق ص: 55-56

تارة، ودخلها تارة أخرى، ومفهومي الفاعل المنفذ - Sujet opérateur والموضوع. أقول من خلال كل ذلك يمكن تلخيصها في قسمين كبيرين .

ماجريات خارج المدينة من ص 2 إلى ص 11 من الجزء الأول من الرحلة :

يظهر الراوي، ابن المؤقت، مبلبل الخاطر، يطوي الوعر والسهل، منتقلا من مكان إلى آخر راغبا في الالتحاق بالطائفة الناجية، باحثا عن يأخذ بيده، ويكفيه شر ما هو فيه من ضيق التقليد؛ ولوثة المتابعة بغير دليل، وبينما هو كذلك " إذ ظهر في الفلا، غبار قد علا، فأعجزني كونه، وأزعجني لونه، فرقبته على تل رقبته، وحسبته أمرا خشية، فانتشعت سحب حجبته، عن رجل أخبرني مهجته، عن صدق بهجته، وأن له باعا في العالم طويل "ج 1 - ص 3، لقد كانت تلك الحيرة تابعة من وعيه بسخافة التقليد . وبظفرو بهذا الرفيق السلفي الذي استجمع شروط الاجتهاد، سيسمو بالراوي من دركات التقليد ويرتاد يفاع الاجتهاد، فانفقا على المسير نحو مدينة فاضلة تتماشى مع رؤيتهما، فحزرا أن تكون تلك المدينة مراكش، وبمجرد الاقتراب من أسوارها تسمعا، عن كذب من حديث شاين من أبنائها، ما خيب أفق ظنهما، وأنها لا تختلف في شيء مما فر منه الراوي. ومن ثم عز ما على دخول المدينة واقتحام مغامرة الإصلاح، لكن كيف يتسنى ذلك؟ من يأخذ بأيديهم ويدلها على مسالكها ويعرفها بساكنتها؟. وبغنة ظهر لهما رجل نازح منها خائف فار بجويصة نفسه من درن مناكرها . فالفاعل في هذه اللحظة - بالنسبة للرجل- هو المجتمع بأعرافه وتقاليده، ومن لم يرضخ لأوامره، فإنه يحكم عليه بالإقصاء والنفي؛ كما هو شأن عبد الباسط الذي سيتعرفان عليه، والذي سيغدو قناة تواصلهما مع المجتمع فيما بعد، وبعد استئناسهما به واطمئنانه إليهما، طلبا منه تعريفهما بمدينته طبيعة، وتاريخها

ونفسية ساكنة ، فاستجاب مؤسسا خطابه التقريري على ثنائية جلال الماضي وأفضليته، وسوء وضعية الحاضر وفسادها . أما ولوج المدينة فكان من باب أبوابها الثلاثة عشر، بين قديم ضارب في القدم وحديث .

الدخول إلى المدينة وهو المقطوعة الثانية من ص 11 إلى آخر صفحة من الجزء الثالث .

أثروا الدخول من باب الرب، أو باب الشريعة، تسمية التصقت به بسبب إقامة الحدود فيه، وهذا المدخل ممتأه من حيث دلالاته مع مشروعه السلفي . لم يتمكنوا من دخول ذلك الباب إلا بعد إرشاء العسس الذين لا يسمحون بتعديته إلى الداخل؛ إلا لحامل تعريف من الأهالي، أو ماسك تسريح من الغرباء . ومن الرشوة سيبتدئ النصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتصدي لمختلف البدع وما أكرها، حيث سيستغرق بسطها ودفعها بقية الجزء الأول والجزأين الباقيين بتمامهما . وتنتهي الرحلة بفشل المشروع وقرار من هم بالإصلاح باعترال الناس؛ أي باستعصاء الموضوع "المجتمع" على تقبل فعل من حاول أن يكون فاعلا منفذا .

وإيضاحا لمكون الخط الشرعي؛ فلن أتطرق للأبعاد الشرعية التحسينية والإقناعية الصارخة في النص، والمتمثلة في تضمين مجموعة من النصوص القرآنية والسنية والأصولية والفقهية، كما أنني لن أتعرض لما اشتملت عليه العناوين من اصطلاحات فقهية، أو كلامية أو صوفية، ولن أقدم مسردا بمختلف الفصول وأعمد إلى تصنيفها بحسب أبواب الفقه؛ من عبادات ومعاملات ومسلكيات، وأقاربها بما جاء في مصنفات مكافحة البدع ومستحدثات الأمور، وإنما سأقتصر على ما وظف من ذلك البعد الشرعي الذي تداخل مع السرد وارتبط به ارتباطا اللحمة بالسدى، من مثل .

- 1- الإيحاءات الشرعية والقصية في العتبات العنوان نموذجاً .
- 2- الحمولة الشرعية للشخصيات، سواء منها النماذج المكتملة، أو التي تتطور عبر القصص
- 3- الشحنة الثقافية الشرعية للأمكنة المفتوح منها والمغلق .
- 4- الحوار وصلته بالأجوبة الفقهية .
- 5- البنى القصية الدينية العميقة التي نسجت الرحلة على منوالها، وطبعتها بذلك الطابع الدرامي .

أولاً : الإيحاءات الشرعية والقصية للعنوان :

المؤلف كما يقول الأسلوبيون، نموذج لقارئ النصوص، وإن اختياره لعنوان ما، يعد إخباراً عن الوقائع الأدبية البارزة أو اللاحقة لنظرة دون غيرها، وتأسيساً على ذلك نرى ابن الموقت يضعنا أمام ثلاثة عناوين مفصول بين الأول والثاني بحرف العطف -أو- الدالة على التخيير، الرحلة المراكشية أو المساوي الوقتية، وفصل بين الثاني والثالث بجملته فعلية يدل مضمونها على التخيير، ويسمى أيضاً السيف المسلول على المعرض عن سنة الرسول، ولم يصطنع ذلك اعتباطاً ومجازفة، بل راعى في تلك الصيغ عدة اعتبارات، منها ما هو إيقاعي؛ ويتمثل في السجع بين مراكشية ووقتية، والمسلول والمرآة الرسول، ومنها ما هو دلالي كالمراة المستعارة للنص الذي يشبهها في كونه يعكس الأحداث والوقائع المسرودة، والسيف المسلول المستعار للحجج القامعة للمبتدعين. أما من الناحية التركيبية فقد آثر ابن الموقت الجمل الاسمية على الفعلية لدلالاتها على التأكيد، وإضفاء الوثوقية على دعواه. وجميع هذه الاعتبارات المراعاة في العنوان موجهة بالأساس إلى المتلقي المفترض، تلفت

نظرة وتشده إلى تناول العمل ومباشرة قراءته. ومن خلال ذلك تبين أنه يطمح لقراءة الرحلة في جمهور عريض، منهم من تعنيه متعة السرد، وإليهم توجه بعنوان الرحلة المراكشية، وهناك من يعنيه الحدث الاجتماعي أو التاريخي وإليهم قصد، بمرآة المساوي الوقتية، وهناك القارئ المتفقه الذي يعنيه أمر البدع وموقف الشرع منها، وقد خوطب بالسيف المسلول على المعرض عن سنة الرسول.

ومن خلال هذه العناوين المقترحة نرى تداخل مستويات إبداعها وتواشجها فالرحلة تحيل على الفعل التخيلي، والواقع ترمز إليه المساوي الوقتية، والشرع تحيل عليه عبارة السيف المسلول على المعرض عن سنة الرسول.

وحتى على مستوى التخييل الذي ترمز إليه كلمة رحلة، فإننا نجد مجاله الدلالي مشبعا بسمات شرعية، وأحكام فقهية انزاحت عن المألوف من القواعد، ولا بد من استحضارها أثناء التحليل.

فإذا كانت الرحلة في اللغة مفارقة للإقامة التي تدل على ارتباط الإنسان ببلد ما، وخلق علاقات مع أشخاصه وأشياءه، وممارسة آمال وأحلام يقظته بين حناياه، والشعور داخله بالدفء والطمأنينة والأمن، فالرحلة اقتلاع من تلك التربة وركوب المغامرة، ومجال تداولها في الثقافة العربية جد متسع، حيث ترددت في مواطن اقتصادية، وسياسية، واجتماعية ومعرفية، إلى حد أنها أصبحت ظاهرة أو إستيمنة ملازمة، مقترنة بالغرابة والإبداع والتجدد والتحول. ففي المجال المعرفي مثلاً رافقت الرحلة الشعر العربي منذ أن قصده مقصده، وقدمت للإبداع دفقة إيحائية سرى نبضها في مختلف أوصاله، وصاحبت القصيدة العربية من يوم تحلقها، ولأزال شعراؤنا المعاصرون يشقون دلالات جديدة من

الرحلة وما تقضي إليه من الغربة والمغامرة¹⁵... الخ، كما أن تأسيس العلوم؛ شرعيها، ولغويها، وعقليها وعملها مرتبط بالرحلة. ونظرا لهذا التواتر فقد اعتبرها ابن خلدون مدمكا أساسيا في تحصيل العلم وتحمله، ومن ارتحل زاد مزية وفضلا على من لم يرتحل، وفي السرديات اقترنت الإقامة بالضحالة والفقر والترحال بالثراء، وخير مثال على ذلك السندباد البحري والسندباد البري في ألف ليلة وليلة. وبما أن الرحلة مظنة للمغامرة واستهداف المخاطر، فقد أحاطها المشرع بمجموعة من الضوابط الفقهية والأخلاقية الموحية بمخاطرة تلك التجربة، كوداع الأهل والأخصاء، وترك الزاد الكافي للزوجة والأبناء، ووصية من يقوم مقام المرتحل في تفقد أحوالهم والسهر على مصالحهم، واختيار الرفيق قبل الطريق، والتأخير في السفر. وبما أنها خارجة عن المألوف، فقد خصت بأحكام فقهية، كالقصر في الصلوات الرباعية، والإفطار في رمضان، وللراجل أن يتنفل على دابته وإن كانت الوجهة مخالفة لسمت الكعبة، ومتى اتابه هاجس يشوش باله من جهة الأهل مثلا ويؤثر على الهدف من الرحلة، فعليه أن يطرده عنه باستصحاب الحال؛ فقد تركهم في أحسن حال وفي يد آمنة، فذلك الوضع المطمئن ينبغي استصحابه على الوقت الراهن. وأجازت إلى بعض المذاهب لأتباعها التمتع بما يسمى بزواج المسيار، وإذا تهيأ للعودة من رحلته فيستحب له أن يخبر الأهل بمقدمه، وإن حل بموطنه ليلا من غير إخبار فلا يدخل بيته، وعليه أن يستهل مقدمه بالصلاة في المسجد، وللأصدقاء أن يستقبلوه من غير أن يستأنسوا

¹⁵ يقول أدونيس : الرحيل انتهى والطريق

صخرة عاشقة

إننا ندفن النهار القتيـل

بالحديث معه، فهو حامل أخبار وعجائب ومغرم، والأهل أولى بالاستمتاع بغنمها وبطرافتها قبل غيرهم¹⁶.

فمفهوم الرحلة وإن صرفناه لعالم التخيل، فإنه يبقى مسكوناً بالهاجس الشرعي، وكلا الوجهين لابد من استحضارهما أثناء القيام بالقراءة والتأويل. وسنأخذ من الرحلة وحدة قصصية صغيرة نوضح من خلالها ما ألمعنا إليه، إذ الرواية في جنينيتها عبارة عن عنايد قصصية صغرى تنفجر في النهاية لتعطي القصة الكبرى. يطالعنا البطل في مستهل الرحلة وقد أنهكه الترحال يعاني من قلق وتوتر، نتيجة لاستكفاه من العيش داخل عالم معقد يتميز بالانحطاط في سائر مستوياته، وفجأة وبطريقة غرائبية، على أسلوب القص الشعبي، يظفر برفيق خبير يبدد حيرته، ويعيد له برودة واطمئناناً من نوع آخر غير الذي جربه زمان طريقته، حيث سيلزمه طيلة رحلته، إنه عبد الهادي "فبينما أنا في منازعة هذه الأفكار مع ما حل بي من ترادف الأكدار، إذ ظهر في الفلا، غبار قد علا، فأعجزني كونه، وأزعجني لونه، فرقبته على تل رقبته، وحسبته أمراً خشية، فانقضت سحب حجبته عن رجل أخبرني بهجته عن صدق بهجته، وإن له باعاً في العلم طويل"¹⁷ ودار بينهما حوار في الهوية والتعارف، فأيقن حينئذ أن العناية الربانية ساقته له الشخص أو المجتهد الذي ظل يبحث عنه، استجمع كل العلوم لغويها وشرعيها وعقليها وفلسفيها.

¹⁶ - ابن الحاج : المدخل 70/4

¹⁷ - محمد بن محمد الموقت : الرحلة 3/1

قتنيات الإبداع السردى المتمثلة في هذه اللحظة القصية تمثل في :

1- قلق البطل وحيرته، فهو مستنكف من واقعه، ويبحث عن عالم ذي قيم أصيلة، وطبعاً فلا إبداع من غير إحساس بهذا التعارض بين ما هو كائن، وما ينبغي أن يكون.

إن العمل السردى "لا يظهر إلا عندما يكون هناك استياء من القيم السائدة في المجتمع، وطموح نحو قيم نوعية جديدة؛ ولهذا عرف غولدمان L. Goldman الرواية بأنها بحث عن قيم أصيلة في عالم منحط. والرواية الإيجابية هي تلك التي تجاوزت في رؤيتها ما هو موجود في الواقع. وهذا سر القيمة الإنسانية والفنية لأي عمل إبداعي، على اعتبار أنه ليس عملاً ثانوياً في حياة الإنسان، وإنما يساهم في تأسيس المستقبل الإنساني. ولهذا فالرواية كتاج فكري ليست ترفاً كما يراها البعض"¹⁸. من الاستشهاد الذي سقناه نعلم أنه يتحدث عن الرواية، والعمل موضوع البحث لم يبلغ هذا الشأ، فهو عمل سردي صنفناه في الأوليات التي ستسلمنا إلى الرواية المغربية بمعناها الدقيق، ولكن الذي عنانا منه هو رفض عالم ومحاولة إنشاء عالم ترضى عنه الذات، وقد اتسمت معظم الرحلات بهذه الخصيصة، فابن جبير في رحلته انتقد من جملة ما انتقد الرشوة الشائعة، كما أن الطرطوشي حارب في كتابه سراج الملوك نقائص مجتمعه.

2- عنصر الغرابة أو الغرائبية التي ضمنت للقص سيرورته: فبينما أنا في منازعة هذه الأفكار... إذ ظهر في الفلاغباء قد علا... الخ" وهي عجيبة من عجائب القصص الشعبي. فاضطر أبه النفسي وقلقه وحيرته، قابلهما في العالم الخارجى اكفهار وعاصفة غطت فضاء السرد؛ لكن اشتداد الأزمة سرعان ما انبثق عنه انفراج، فدوام الحال من الحال.

¹⁸ - الحمداني حميد. الرواية المغربية ص 107.

3- تقديم الشخصيات، شخصية عبد الهادي، والراوي.

4- اصطناع أسلوب المقامات، وإن كان لا يلتزم به في جل عمله، وفعلا فإن هذه الفترة متأرجحة بين لحظتين، لحظة الاحتفاء بالأساليب الموشاة بالاصباح البديعة، ولحظة التخلص منها والانفكاك من قبضتها.

أما الأبعاد الشرعية الثاوية في ذلك المقطع فتتمثل في:

1- بناء عالم بديل عن واقع مترد، اعتمادا على رؤية سلفية تمتاح أصولها من شرع نقي لا تخالطه بدع ولا تتخلله ضلالات.

2- اتخاذ الرفيق الخبير، أو قل الشيخ، والمشيخة هاهنا مفارقة للمشيخة الصوفية التي سينتقدها، إنه بإزاء شيخ سلفي استجمع أدوات الاجتهاد، وقد اختار له اسما يلائم الوظيفة التي ستسند له في السرد إنه عبد الهادي، واسم الهادي والمهدي له دلالة دينية والسياسية في تاريخنا العربي الإسلامي، فهو يبشر بعالم جديد صالح، بدل واقع ملئ انحرافا وظلما. وقصدية هذه الإيحاءات ليست بغريبة على ابن الموقت المؤرخ.

3- إن الخلفية التي تناص مع ذلك المقطع، هي قصة موسى والخضر، لكن رفقة الموقت لعبد الهادي ستكون من نوع آخر، صحبة ولا كصحبة موسى للخضر الذي اشترط على مريده ألا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكرا، بل هي صحبة ملفومة من أولها إلى آخرها بالأسئلة المقلقة وطلب الأجوبة المعززة بالأدلة.

إن الرحلة تستلهم مضمونها وأسلوب حكيها من قصة أصحاب الكهف، ومن أعمال سردية مشرقية أخرى اشرنا إليها سابقا؛ ولهذا فإن نهاية أبطال الرحلة نهاية

درامية، لقد حاولوا إقامة عالم يذكر بعالم السلف الصالح، فلما ينسوا أو أخفقوا قرروا النجاة بجويصة أنفسهم، واعتزال الناس "ثم إننا عزمنا على أن نعود إلى ما كنا فيه من الانفراد والاعتزال والبعد عن مثل هذا الاختلاط والابتذال، ونستملح العزلة مدة دوامنا بهذا القطر ونستعذب عليها الصبر، ونعيش فيها عيش الحكماء " ¹⁹. ولقد كانت هذه هي النهاية المأساوية لابن الموقت نفسه. فإنه لما لم يجد لإصلاحه تحققا، وتوالت عليه صواعق المنتقدين، فاجأهم بأمر غريب مخالف لما استقرت عليه أمور الشريعة فقال بقرب فناء العالم، وقيام الساعة... وذلك لرؤية رآها، خدرت أعصاب المغاربة ودخل الفرع والرعب قلوبهم ²⁰ ترى هل كان للظرفية التاريخية التي عاشها المغرب في أواخر العشرينيات وبداية الثلاثينيات انعكاس على هذه الخاتمة الأسيفة؟ لقد عرفت هذه الفترة إجهاض ثورة عبد الكريم الخطابي التي تملأ عليها الإسبان والفرنسيون وبرذعة من الخونة، كما أن نفس الفترة ستعرف تراجع المقاومة المسلحة

¹⁹ - محمد بن محمد الموقت : الرحلة 165/3

²⁰ - عبد الله الجراي : هذه مذكراتي 147/2 دراسة وتحقيق مصطفى الجوهري، أطروحة مقدمة في كلية آداب المحمدية برسم السنة الجامعية 2000-2001 لازالت مرقونة. ونص البيان : إنذار من لسان سيد البشر لأهل القرن الرابع عشر.

وقد من الله تبارك وتعالى على عبد من عباده برؤيته صلى الله عليه وسلم مناما، فقال له : أنذر الأقوام الضالة نيابة عني ليرجعوا عما هم فيه من وجوه الكفر والفسوق والعصيان، قبل أن يحل بهم فوق ما هم فيه من الدواهي والشدائد والعدوان، وأعلمهم بأن الساعة قد قربت، وستظهر العلامة الاولى وهي طلوع الشمس من مغربها، وذلك عام السبعين بعد الثلاثمائة والألف ويغلق باب التوبة. وعلى رأس الثمانين سنة يرتفع القرآن من صدور الناس ويمحي من المصحف، وعلى راس الأربعمائة بعد الألف يخرج المسيح الدجال. هنا انتهى كلام الرسول الأعظم مولانا محمد صلى الله عليه وسلم في هذه الوصية. فالعجل ياعباد الله العجل للأعمال الصالحة، والرجوع إلى الله من الأعمال الطالحة فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وما هو إلا قول خير الرية. عن نسخة بخط ابن الموقت.

للأرياف المغربية، وبعد ذلك سيصبح المغرب بين فكي الكماشة الاستعمارية، ومن ثم ستخذ المقاومة استراتيجية جديدة.

تلك قراءة قصدنا من خلالها رصد بعض ملامح البنى الشرعية الإبداعية الثاوية وراء رحلة ابن الموقت المراكشية، وقد اعتبرناها من الإرهاصات الأولى التي ستقضي فيما بعد إلى فن روائي حقيقي، وطبيعي أن تتميز بما تميز به النموذج المشرقي والذي قال عنه الناقد الروائي محسن جاسم الموسوي: "فالنصوص الكلاسيكية العربية مثلاً لا تخلو من الحكايات والأحداث والنماذج والشخصيات، وشذرات من التفاصيل الوصفية، لكنها تظل راکدة قديمة بقدر ما تحتشد به من معارف متجمدة، لم تصل إلى درجة السيولة الروائية سواء كانت هذه المعارف تاريخية أو لغوية أو إيدولوجية، كما تظل محتلة التوزيع متباينة النسب، بعيدة عن مواصفات القصة الفنية بقدر ما ينتقصها من ضبط لإيقاع الحركة الداخلية والخارجية"²¹.

إن متطلبات الرواية الاقتصادية والاجتماعية لم تبلور آنذاك، إذ أننا لم نبارح على مستوى الوعي ما أسماه الأستاذ العروي بمرحلة وعي الشيخ، التي انعكست في مستوى الأدب والتعبير، حيث تحولت "القصيدة إلى نشيد وطني، والمقامة إلى هجاء اجتماعي، والنبذة التاريخية إلى مقالة سياسية فلا يجوز كما يفعل البعض دراسة هذا الإنتاج تحليلاً وتقداً دون الإشارة، ولو إشارة خفيفة، إلى وعي الشيخ المسيطر أثناء تلك الحقبة على المجتمع، يكفي في هذا الصدد التذكير بالصدقة التي كانت تجمع الشيخ

²¹ - د محسن جاسم الموسوي: المرجع نفسه ص: 142

محمد عبده بحافظ إبراهيم و خليل مطران؛ لكي تنضح هذه الوحدة الفكرية المذهبية²².

لقد جمع الفقيه ابن الموقت بين وعي الشيخ وممارسة الأدب في حدود ما سمحت به ملابس تجرته الإبداعية آنذاك.

ذ. محمد الطوكي :

أستاذ جامعي بكلية الآداب والعلوم

الإنسانية جامعة القاضي عياض مراكش

²² - ذ عبد الله العروي : الإيديولوجية العربية المعاصرة، المركز العربي الثقافي، الطبعة الأولى 1959 ص: 217.